وداعاً.. أيُّهَا الرّفيق

إلى روح رفيق العمر الوفي محمد الإدريسي

أخْـرَسَ المَـوْتُ يَـاعَـزِيـزِي لِسَـانِي
وَتَحَـدَّيْتُـهُ فَخَـانَ بَيَـانِي
مِثلَ حُـزْنِـي عَلَيْكَ مَـا حَـزِنَـتْ نَفْـ
ـسُ حَبِيبٍ وَلَا بَكَـتْ عَيْنَـانِ !
أنَـا فِـي مَـوْقِفٍ تَـوَارَيْـتَ فِيـهِ
عَنْ عُيُـونِـي وَأنْتَ حَيْـثُ تَـرَانِي !
أُنَـادِي مَنْ كَـانَ يَسْمَـعُ هَمْسِي
وَارْتَعَـاشَـاتِ نَبْضَتِي فِي جَنَـانِي ؟
أُنَـاجِي مَـنْ كَـانَ فِـي القَلْبِ مَثْـوَا
هُ وَفِي قَلْبِـهِ الكَبِيـرِ مَكَـانِي ؟
قَـدَرِي اليَـوْمَ أنْ أرَاكَ مُسَجًّى
وَصَـرِيعـاً مُحَنَّطَ الجُثْمَـانِ
أسْكَتَ المَـوْتُ بُلْبُـلاً كَـانَ فِي الـرَّوْ
ضِ شَجِيَّ التَّغْـرِيـدِ وَالألْحَـانِ
جُلْتُ فِي رَوْضِـهِ وَقَـدْ خَيَّمَ الصَّمْـ
ـتُ عَلَيْـهِ وَغَـاصَ فِي الأشْجَـانِ

وَرَأيْتُ الـــوُرُودَ فِيـــهِ بِـــلاَ عِطْـــ
ـــرٍ، وَبَـــاقَـــاتِهَـــا بِـــلاَ أَلْـــوَانِ
وَرَأيْتُ الشُّحُـــوبَ فِـي كُلِ وَجْـــهٍ
وَسَـــوَاقِي الـــدُّمُـــوعِ فِي الأجْفَـــانِ

* ● *

جَفَّ فِي رَوْضِـــهِ الـــرُّوَاء وَغَـاضَ الـــ
ـــبِشْرُ وَانْهَـــدّ رَافِعُ البُنْيَـــانِ
وَانْطَفَـــا مَشْعَلٌ تَـــوَهَّـجَ فِيـــهِ
وَاخْتَفَى أُنْسُ عُـــرسِـــهِ فِـي ثَـــوَانِي
غَـــابَ عَنَّـــا إلاَّ صَـــدَاهُ فَمَـــا زَالَ
قَـــوِيـــاً يَنْسَـــابُ فِـي الآذَانِ
خَيَّمَ الصَّمْتُ فِـي مَقَـاصِيـــرِهِ الفِيـــ
ـــح، وَأقْـــوَتَ مَجَـــالِسُ الخِـــلاَّنِ !
كُنْـتُ أرتَـــادُهُ بِشَـــوْقٍ فَلِيقَـــا
نِي مَشُـــوقـــاً إلَيَّ بِـــالأحْضَـــانِ !

* ● *

وَهَبَ الحَـــرْفَ عُمْـــرَهُ وَرَعَـى النَّشْ
ءَ، وَوَالَىٰ نِضَـــالَـــهُ الإنْسَـــانِي

وَأبـــاً كَـــانَ حَـــانِيـــاً وَعَطُـــوفـــاً
وَأدِيبـــــاً يَمْتَـــــاحُ مِـنْ جَبْـــــرَانِ
أتْعَبَـتَ نَفْسَـــــــهُ اللَّيَـــــالِي وَوَلَّـى
غَيْـــرَ رَاضٍ مَـــا كَـــانَ فِي الإمْكَـــانِ !
وَتَحَـــدّىٰ الصِعَـــابَ فِـي قِمَّـــةِ العُمْـــ
ـــرِ، كَمَـــا كَـانَ وَهْـــوَ فِي الـــرَّيعَـــانِ
ذِكْـــرَيَـــاتِي بِـــهِ صَحَـــائِفُ مِـنْ نُـــو
رٍ، وَدُنْيَـــــا وَضِيئَـــــةُ الأَلْـــــوَانِ
أيُّهَـــا الـــرَّاحِلُ العَـــزِيـــزُ تَلَفَّت
لِتَـــــــرَى الحُـبَّ وَالأسَـىٰ فِـي آنِ
لِتَـــــرَىٰ مَـــــوْكِبـــاً وَرَاءَكَ يَبْكِي
وَأخـــــاً لَـمْ يَمْنحَكَـــــهُ الأبَـــــوَانِ
حَمَلَـت نَعْشَـــــــهُ رُؤوسُ بَنِيـــــهِ
فَـــاعْتَـــلاَهَـــا كَـأشْـــرَفِ التِيجَـــانِ
مَـــاعَهِـــدْنَـــا الأشْجَـارَ مِـن قَبْلُ تَمْشِي
وَهْيَ مَحْمُـــولَـــةٌ عَلَى الأغْصَـــانِ !
لَـــوْ تُفَـــدَّىٰ فُـــدِيـتَ بِـــالـــرُّوحِ لَكِنَّ
المَنَـــايَـــا مُغْتَـــالَـــةٌ كُلَّ فَـــانِي
لَيْـسَ يَشْفِي جِـــــرَاحَ قَلْبِـي دُنْيَـــــا
مِن مَـــــرَاثٍ تُصَـــــاغُ فِـي دِيـــوَانِ
أسْكَنَ اللـــــهُ رُوحَـــــهُ غُـــرُفَـــاتٍ
وَارِفَـــاتٍ فِـي جَنَّـــةِ الـــرِّضْـــوَانِ